التق والأسد ، ولكنهما بارزتين إرادة ابن طولون وإرادة الله .

وضربته روح الشيخ فلم يبق بينه وبين الآدمى عمل ، ولم يكن منه بازاء لحم ودم ، فلو أكل الضوء والهواء والحجر والحديد ، كان ذلك أقرب وأيسر من أن يأكل هذا الرجل المتمثل فى روحانيته لا يحس لصورة الأسد معنى من معانيها الفاتكة ، ولا يسرى فيه إلا حياة خاضعة مسخرة للقوة العظمى التى هو مؤمن بها ومتوكل عليها كحياة الدودة والنملة ، وما دونها من الهوام والذر .

وورد النور على هذا القلب المؤمن يكشف له عن قرب الحق سبحانه وتعالى ، فهو ليس بين يدى الأسد ولكنه هو والأسد بين يدى الله ، وكان مندمجا فى يقين هذه الآية : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » .

ورأى الأسد رجلا هو خوف الله ، فخاف منه ، وكما خرج الشيخ من ذاته ومعانيها الناقصة خرج الوحش من ذاته ومعانيها الوحشية ، فليس فى الرجل خوف ولا هم ولا جزع ولا تعلق برغبة ، ومن ذلك ليس فى الأسد فتك ولا ضراوة ولا جوع ولا تعلق برغبة .

ونسى الشيخ نفسه فكأنما رأى الاسد ميتاً ولم يجد فيه (أنا) التى يأكلها ، ولو أن خطرة من هم الدنيا خطرت على قلبه فى تلك الساعة أو اختلجت فى نفسه خالجة من الشك ، لفاحت رائحة لحمه فى خياشيم الأسد فتمزق فى أنيابه ومخالبه

***

قال : وانصرفنا عن النظر فى السبع إلى النظر فى وجه الشيخ فاذا هو سادر مفكر ، ثم رفعوه وجعل كل منا يظن ظناً فى تفكيره ، فمن قائل انه الخوف أذهله عن نفسه ، وقائل إنه الانصراف بعقله إلى الموت ، وثالث يقول إنه سكون الفكرة لمنع الحركة عن الجسم فلا يضطرب ، وزعم جماعة أن هذه حاله من الاستغراق يسحر بها الأسد . وأكثرنا فى ذلك وتجارينا فيه حتى سأله ابن طولون : ما الذى كان فى قلبك وفيم كنت تفكر ؟

فقال الشيخ : لم يكن على بأس ، وانما كنت أفكر فى لعاب الأسد أهو طاهر أم نجس .....

(ملطا) مصطفى صادق الرافعى

القاهرة المعزية

وجوب الاحتفاء بعيدها الألفى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ أعوام قلائل احتفلت فرنسا بذكرى إحدى مدنها العتيقة ، وهى مدينة قرقشونة (كاركاسون) الرومانية لمناسبة مضى ألفى عام على نيامها ؛ وما زلنا نذكر مما أفاضت به الأنباء يومئذ طرافة هذا الاحتفال وروعته وأهميته من الوجهة القومية . وقرقشونة احدى مدن ولاية « سبتيمانيا » السبعة ، وقد كانت مدى حين معقلا اسلاميا فى جنوب فرنسا ؛ وما زالت على صغرها وتواضعها شهيرة بآثارها الرومانية وتاريخها الحافل أياء الرومان والقوط والعرب

وإن مصر لتستطيع أن تفخر بمدنها الألفية عنوان تراث مجيد وحضارة خالدة ؛ ويكفى أن نذكر فى هذا المقام عاصمتيها الجليلتين ، الاسكندرية ثغرها العظيم التالد ، والقاهرة عروس العواصم الاسلامية ؛ فقد قطعت الإسكندرية من عمرها المديد أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا ؛ وأشرفت القاهرة على ألفها ؛ وإذا كانت العاصمة الكبرى تقترب من عيدها الألفى بخطى سريعة فان من بواعث الأسف أن يقترب هذا اليوم التاريخى العظيم دون أن تتأهب مصر للاحتفاء به واحاطته بما يجب من ضروب الاشادة والتكريم ؛ ومن بواعث الأسف ألا يرتفع حتى اليوم صوت رسمى ينبه إلى هذا الحادث القومى الجليل ، وينوه بخطورته وأهميته ، ويدعو المختصين إلى الاهتمام بأمره

ولقد احتفلت مصر بالأمس بالعيد المئوى لوزارة معارفها ، واحتفلت من قبل بالعيد المئوى لمدرسة الطب ، والعيد المئوى للمدرسة الخديوية ، والعيد الخمسينى لإنشاء المحاكم الأهلية ، وغيرها من المواقف والحوادث القومية ، وأدركت ماوراء الاحتفاء بهذه المناسبات التاريخية من بعث للماضى ، وتكريم للذكريات المجيدة ، وإذكاء للعاطفة القومية ، ووصل بين

مراحل تاريخنا . بيد أن هـذه الذكريات والمناسبات الحافلة تبـدو ضئيلة متواضعة إلى جانب الاحتفاء بالعيد الألفي لمدينة القاهرة

ذلك أن الاحتفاء بالعيـد الألفي للقاهرة المعزية يعتبر حادثاً منقطع النظير فى تاريخ مصر الاسلامية . وليس بين عواصم العالم الكبرى سوى مدن قلائل قطعت عمرها الألفي؛ وأشهرها وأعظمها من الوجهة التاريخية هى بلا ريب أثينه والاسكندرية وروميه وقسطنطينية . وإذا كان العالم الاسلامى يضم عدة مدن ألفية أخرى ، فانه ليس بينها من تضارع القاهرة فى ضخامتها وجلالها وأهميتها السياسية والفكرية والاجتماعية

ألف عام هجرية كادت تنقضى على قيام المدينة الفاطمية المتواضعة ، القاهرة المعزية أو قاهرة المعز لدين الله ؛ ففى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، ٧ يوليه سنة ٩٦٩ م ، دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر الصقلى قائد المعز الفاطمى مدينة مصر أو مدينة الفسطاط غازية ظافرة ، وعسكرت عند مغيب الشمس فى الفضاء الواقع فى شمال غربى الفسطاط ؛ وفى نفس الليلة وضع القائد جوهر تنفيذاً لأوامر المعز أول خطة فى مواقع المدينة الجديدة التى اعتزم الفاطميون إنشاءها بمصر لتكون لهم منزلا ومعقلا . وحفر أساس قصر جديد فى نفس الفضاء الذى نزل فيه جيشه ، فكان هذا مولد القاهرة التى سميت كذلك تفاؤلا وتيمناً بالنصر ؛ وقامت المدينة الجديدة بسرعة تتوسطها القصور الفاطمية والجامع الأزهر الذى أنشىء بعد ذلك بأشهر قلائل (فى جمادى الأولى سنه ٣٥٩) ليكون منبراً للدولة الجديدة وملاذاً لدعوتها ؛ ولم تلبث أن غدت منزل الخلافة الفاطمية منذ قدم المعز لدين الله إلى مصر بأمواله وأهله وبطانته وتوابيت أجداده ، واستقر فى عاصمته الجـديدة فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ (يونيه سنة ٩٧٣ م)

ولبثت القاهرة مدى حين ملوكية عسكرية لا تضم سوى القصر الفاطمى ودواوين الحكم وخزائن المـال والسلاح ومساكن الأمراء والبطانة ومن إليهم من الأتباع النازحين فى ركب الغزاة ؛ ولكن لم يمض جيل واحد حتى اتسعت جنبات المدينة الجديدة ونمت نمواً عظيما وترامت معالمها وأحياؤها إلى ماوراء السور الذى أنشأه حولها القائد جوهر واتصلت بمدينة مصر (الفسطاط) وامتزجت المدينتان وتداخلتا وصارتا تكونان معا مدينة من أكبر وأعظم مدن الاسلام فى العصور الوسطى . وكان اسم القاهرة يطلق اصطلاحا على المدينة الفاطمية التى يضمها السور الذى أنشأه القائد جوهر ثم وسعه وأعاد إنشاءه أمير الجيوش بدر الجمالى فى أواخر عهد المستنصر بالله (سنة ٤٨٦هـ) وأدخل فيه عدة أحياء ومواقع جديدة : وأما المناطق التى بقيت خارج السور والتى كانت تمتد فيما بين الجامع الطولونى وقلعة الجبل إلى الجهة المقابلة على ضفة النيل ، فكانت تعرف بظاهر القاهرة ، وكان اسم مصر يطلق دائما على الفسطاط القديمة ، ويطلق على المدينتين معا « مصر القاهرة »

وما زالت معالم القاهرة المعزية وحدودها القديمة قائمة يحدها من الشمال موقع باب الفتوح وباب النصر والسور الذى يصلهما وهو بقية من سور أمير الجيوش بدر الجمالى ، ويحدها من الجنوب باب زويلة ، ومن الشرق سفح الجبل ، ومن الغرب موقع الخليج القديم ، وما يلى ذلك حتى ضفة النيل ، وما يزال الجامع الأزهر قائما وسط المدينة القديمة حيث قام منذ ألف عام تحيط به معظم الأحياء والدروب الفاطمية القديمة بعد أن تغيرت أسماؤها ومعالمها

ولقد شهدت القاهرة فى ظل الخلافة الفاطمية ألواناً من العظمة والبهاء والبذخ قلما شهدتها فى ظل دولة اسلامية أخرى ؛ ومع أنها نمت بعد ذلك نمواً عظيما ، واتسعت جنباتها وأحياؤها حتى غدت فى القرن التاسع الهجرى اضعاف ما كانت عليه أيام الفاطميين ، فانها لم تستطع بمثل ما سطعت فى عهدها الأول ، ولم تشهد مثل ما شهدت فيه من مواكب الخلافة الفخمة ، ورسومها وأعيادها الباذخة ولياليها وحفلاتها الباهرة ؛ كانت القصور الفاطمية آية الفخامة والبهاء وإن الخيال ليضطرم إلى الذروة حينما يستعرض تلك الصور الرائعة التى تقدمها الينا الروايات المعاصرة من عظمة الخلافة الفاطمية وروعتها فى مظاهرها العامة ، وعن حياة الخلفاء

الخاصة داخل القصر وأبهائه وأجنحته المنيفة . وقد كان القصر الزاهر يشرف من الغرب على ميدان شاسع يسع عشرات الألوف من الجند والنظارة يعرف بميدان بين القصرين ، وهو اسم شهير فى تاريخ القاهرة المعزية شهرة ميدان « القديس مرقص » (سان ماركو) فى تاريخ البندقية ، وقد سمى كذلك لوقوعه بين القصر الفاطمى الكبير والقصر الصغير المواجه له وهو المعروف بالقصر الغربى ؛ وقد لبث « بين القصرين » أيام الدولة الفاطمية مسرحاً لأعظم المواكب والمظاهرات الخلافية والعسكرية ، والحفلات العامة ، ولبث بعد زوال الدولة الفاطمية عصراً أعظم ميادين القاهرة ، وأزخرها عمارة وأشدها احتشاداً ، وإنك لتستطيع أن تتبع كثيراً من أخبار الخلافة الفاطمية والشعب القاهرى فى ميدان ما بين القصرين ، كما تستطيع أن تتبع كثيراً من أخبار الجمهورية البندقية فى ميدان القديس مرقس ، كلاهما امتزج بحياة الدولة والشعب ، واتخذ مكانة فيها .

***

ومنذ بضعة أعوام شعرت بعض الجهات الرسمية بأن الجامع الأزهر يدنو من عمره الألفى . وفكرت فى أن تحتفل بهذا العيد احتفالا عظيما يتفق مع روعته التاريخية ، ووضع بالفعل برنامج لتنظيم هذا الاحتفال . وانتدبت لجنة لوضع تاريخ شامل للأزهر منذ قيامه إلى يوم عيده ، ثم وقف المشروع لأسباب غير معروفة ؛ بيد أن الذى يثير الدهشة حقاً ، هو أن تخطر للقائمين بالأمر فكرة الاحتفال بالعيد الألفى للجامع الأزهر دون أن تخطر لهم فكرة الاحتفال بالعيد الألفى لمدينة القاهرة ، مع أن القاهرة تسبق الأزهر فى مولدها بعدة أشهر ؛ وقد أنشىء الأزهر فى الأصل ، لا ليكون جامعة للدراسة ، ولكن ليكون مسجداً للعاصمة الفاطمية الجديدة وليكون منبراً للدولة الجديدة ومعقلا لدعوتها

فاذا كان مما يحمد أن فكر القائمون بالأمر فى تخليد الذكرى الألفية للجامع الشهير ، فان ما يبعث إلى الأسف أن يفوتهم حتى اليوم التفكير فى تخليد ذكرى القاهرة الألفية ؛ وهذه الذكرى الخالدة تدنو بسرعة ، فقد وضعت أسس العاصمة الفاطمية كما رأينا فى منتصف شعبان سنة ٣٥٨ هـ فى منتصف شعبان سنة ١٣٥٨ هـ ، أعنى بعد نحو عامين ونصف فقط تبلغ القاهرة المعزية عمرها الألفى المديد

وبعد أشهر قلائل من ذلك التاريخ ، أعنى فى جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ هـ يبلغ الجامع الأزهر عمره الألفى أيضاً ، إذا اعتبرنا تاريخ البدء فى إنشائه وهو جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ —

وانه لمن بواعث الفخر حقاً أن يكون تاريخنا حافلا بمثل هذه الذكريات العظيمة التى هي عنوان تراث قومى مؤثل

فعلينا أن نفكر ملياً فى الاحتفاء بهذين العيدين القوميين الجليلين وإذا كان قد فاتنا حتى اليوم أن نؤلف للاحتفاء بهما اللجان الخاصة ، وأن نضع البرامج اللائقة ، فان مايزال ثمة متسع من الوقت لتحقيق هذه الأمنية ؛ ولقد ارتبط اسم القاهرة المعزية والأزهر دائما حتى أنه ليكفى أن تؤلف هيئة واحدة للقيام بهذه المهمة ، فتضع للاحتفال بعيد القاهرة الالفى برنامجا خاصا وتضع برنامجا آخر للاحتفال بالعيد الألفى للجامع الأزهر ، — يراعى فى كل منهما ظروفه ومناسباته الخاصة ؛ ومن الطبيعى أن يحتوى البرنامج على وضع تاريخ ألفى شامل لمدينة القاهرة وتاريخ شامل للجامع الأزهر ؛ وأن تنظم فى العيدين طائفة من المهرجانات العلمية والاجتماعية الباهرة وأن يدعى لعيد القاهرة رؤساء البلديات فى جميع المدن الكبرى ممثلين لحكوماتهم ومدنهم ، كما يدعى لعيد الأزهر ممثلو الجامعات فى جميع أنحاء العالم ، وأن ينظم بهذه المناسبة حج خاشع إلى معالم القاهرة المعزية وآثارها الباقية ومنها الجامع الأزهر ، وأن تقام بها الأعمدة واللوحات التذكارية المختلفة ، وأن تفتتح بهذه المناسبة طائفة من المشاريع العلمية والخيرية —

وانه لما يسبغ على هذه الاحتفالات روعتها وجلالها ، أن تقام إلى جانب هذه المعالم الخالدة وفيما بينها .

فهل يحدث هذا النداء المتواضع أثره ؛ وهل يبادر أولو الأمر فيتخذوا الاهبة العاجلة لتحقيق هذه الأمنية القومية الرفيعة ؛ وهل تشهد القاهرة المعزية ، ويشهد الأزهر كلاهما عيده الألفى فى فيض من الروعة والجلال ؛ أم تغيض هذه الذكريات العظيمة فى غمر الجدل والمناقشات العقيمة ؟

محمد عبد الله عنان